حوار حول الغزو الثقافي وآليات مواجهته

مع المستشار الثقافي للجمهورية الإسلامية الإيرانية في بيروت السيّد رئيس زاده

الرسالة الأخلاقية للإمام الخميني هي استراتيجيتنا العليا لصدّ ثقافة التغريب

أجرى الحوار: عبدالكريم سعد

الغزو الثقافي وتداعياته المعنوية والأخلاقية قضية من القضايا المركزية التي تواجهها الأمة الاسلامية وشعوبها في مطلع القرن الحادي والعشرين. ومع أنها تعود إلى أحقاب ومراحل خلت، إلاّ أنها اليوم تكتسب صفة استثنائية وخطيرة، حيث يتعرض الإسلام وبلاد المسلمين لأخطر أنواع الحروب وعمليات الإختراق المعنوي والثقافي والأخلاقي.

في هذا الحوار مع المستشار الثقافي للجمهورية الإسلامية الإيرانية في بيروت سماحة السيّد محمد حسين رئيس زاده، نضيء على هذه القضية، منطلقين بأسئلتنا من طبيعة النشاط الثقافي للمستشارية.

وفي ما يلي نص الحوار:

المستشار السيّد رئيس زاده

نبدأ باستعراض النشاط الثقافي والفكري للمستشارية، ما هي طبيعة البرامج التي وضعتموها لهذا العام؟

في البداية، نرحّب بكم في مجلة «شعائر» الموقّرة ونشكركم على هذا اللقاء الكريم. أما ما يتصل بسؤالكم، فإن البرامج والأنشطة الثقافية التي نقوم بها تتناول العناوين والقضايا التي تدخل في نطاق الرؤية العقائدية والفكرية والفلسفية والثقافية التي أرسى أُسسها القائد المؤسس الراحل الإمام روح الله الخميني قدّس سرّه. وهي الرؤية التي تنطلق من روح التوحيد والشريعة المطهّرة للنبي الأعظم محمد صلّى الله عليه وآله، وأهل بيته الأطهار عليهم السلام.

إذاً، مبدأ عملنا الثقافي الملتزم هو الإسلام المحمدي الأصيل، حيث نسعى بكل جهدنا إلى تظهير ثقافته الحية بما يلائم روح العصر، وبما يندرج في خدمة شعوبنا الإسلامية في إيران وسائر العالم الإسلامي، فضلاً عن متابعة قضايا المظلومين والدفاع عن مصالحهم ومصائرهم في وجه الظلم والاستكبار.

صلاة الجمعة: أبرز ميادين مواجهة الغزو الثقافي

أما بالنسبة إلى النشاطات الثقافية من مؤتمرات وندوات و سواها، فإنها تتأسّس هذا العام على الدعوة التي أعلنها القائد الإمام الخامنئي حفظه المولى، باعتبار هذا العام هو عام «الهمة المضاعفة والعمل المضاعف».

لذا أطلقنا منذ مطلع هذا العام سلسلة من الندوات الفكرية والنشاطات الثقافية، بالتنسيق مع عدد من المدارس والمعاهد والجامعات، وهي تتركّز حول تفعيل ثقافة المبادرة، ومضاعفة الانتاج على المستوى العلمي والأكاديمي، وكذلك على مستوى استعادة الثقافة الأخلاقية والدينية التي تدعو إلى الإصلاح ودرء الفساد في المجتمع بكلّ أشكاله. هذا إلى جانب دورات مكثفة لتعليم اللغة الفارسية بمراحلها المختلفة، فضلاً عن دورات خاصة لتدريب المدرِّسين.

مواجهة التهويد الفكري

ذكرتم نقطه مهمة تتعلق بالنشاط الثقافي الذي يركّز على قضية الإصلاح، هل لنا بتفصيل حول هذه النقطة؟

لقد تناولنا هذه القضية بأبعادها المختلفة ضمن إطار نشاطات شاملة في الجمهورية الإسلامية الإيرانية، أما في لبنان فقد نظّمنا ندوات ولقاءات في المدارس الثانوية وبعض الجامعات، وذلك بالتنسيق مع اللجان الثقافية في الجهات المعنيّة. ولقد تركّزت النشاطات حول حقيقة أن إصلاح المجتمع وعلاج الآفات الاجتماعية هو رسالة الأنبياء والأئمة المعصومين عليهم السلام الذين أرسلهم الله تبارك وتعالى، وقد قاموا بهذه المهمة، وتحملوا أعباء كثيرة، وجاهدوا الطواغيت والكفّار والمُفسدين، وقدّموا تضحيات هائلة، وواقعة عاشوراء نموذجٌ من نماذجها الكبرى، وكذلك القول المعروف للإمام الحسين عليه السلام: «إني لم أخرج أشراً ولا بطراً، بل خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدّي».

إن إصلاح المجتمع هو من أتمّ مصاديق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي فرضه الله تبارك وتعالى على المؤمنين في الدولة الاسلامية: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ الحج:41، فكان هذا المصداق من المميزات الأساسية التي جعلت هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ..﴾ آل عمران:110.

ولئن كانت التقوى هي ميزان التفاضل بين الأفراد: ﴿..إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ..﴾ الحجرات:13، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو من موازين التفاضل بين الأُمم كما يتبيّن من الآية السابقة.

ويمكن القول إن الحركات التحرّرية في العالم الإسلامي، التي أنجزت الإنتصارات الكبيرة، ما كان لانتصاراتها أن تُنجز لولا أنها ضمّت الى الجهاد العسكري، الدفاع عن القِيَم الأخلاقية والدينية التي كانت أساساً لانتصاراتها. من هنا، فإنّ مؤامرة التهويد لا تنحصر في تهويد الأراضي الفلسطينية فقط، بل تهدف إلى أمور أخطر وأشمل، وهي التهويد الفكري والأخلاقي للمجتمعات الإسلامية؛ وهذا ما نشاهده اليوم في محيط واسع من الدول الاسلامية.

«عام الهمّة المضاعفة»

لنعد قليلاً إلى الشعار الذي أطلقه السيد القائد بصدد «عام الهمة المضاعفة»، هل لنا أن نضع القارىء في أجواء الظروف التي استدعت مثل هذه الدعوة وجعلها شعاراً لهذا العام؟

بشأن هذه الدعوة وشعارها نودّ توضيح النقاط التالية:

أولاً: ليست هذه التسمية أمراً عارضاً ولا أمراً شعارياً خالياً من الهدف، بل هي ذات أهداف يرمي السيد القائد من خلالها إلى بلورة حركة استراتيجية من أجل أن يبيِّن الهدف الأساس للشعب الايراني في العام الجديد.

ثانياً: هذا الهدف والعنوان لا يختصّ بهذه السنة فقط، بل من الضروري أن يتوجه الشعب إليه ويعمل لتطبيقه في جميع السنوات. فـ «الهمة المضاعفة» حركة جارية في مدى الأزمنة، والشعب الذي يريد أن يتقدم من الواجب عليه أن يمشي في هذا الطريق. وإذا أخذنا مثلاً عنوان: «رعاية الاعتدال في المصرف» فليس هذا أمراً يختصّ بعام دون آخر، وكذلك عنوان «تطبيق القانون في المجتمع».

ثالثاً: تسمية كلّ عام بعنوان خاص، ليس معناها أن مشاكل الشعب في هذا الموضوع سوف تُحل كليّاً في هذا العام، بل من خلال التأكيد على ضرورة لفت المسؤولين إلى تلك المشاكل.

رابعاً: أحد العوامل التي دعت إلى تسمية السنة الراهنة بهذا العنوان هو تثبّت الشعب الايراني من أن شعار «نحن نقدر» (طبعاً بِحَوْله تعالى) هو شعار واقعي وحقيقي، واستطاع أن يحقّق إنجازات كبيرة للأمة الإسلامية ولجميع المستضعفين، في مجالات واسعه، من الطاقة النووية والطب والزراعة، إلى التصنيعات العسكرية المتقدمة و ... ولقد أراد السيد القائد أن يقول للشعب إننا نتمكن من الوصول إلى قمة الإنتصار والإزدهار والتقدم، ولكن نحتاج الى طيّ مسير طويل في هذا الصدد. فضلاً عن ذلك، فإنّ الشعب الإيراني يتمتّع بالطاقات العظيمة والإمكانات الهائلة؛ والإنجازات التي تم تحقيقها في السنوات الماضية ـ وإن كانت عظيمة ـ فهي ليست كافية مقارنة بالطاقات والإمكانيات التي تتمتع بها البلاد، وإلى الأفق الذي رُسم في وثيقة التطلّعات المستقبلية، فلا بدّ من أن نستثمر هذه الطاقات أكثر وأن نستفيد من عنصر الزمان أكثر، حتى نصل إلى ما هو مأمول في أسرع وقت ممكن، وهذا يحتاج إلى الهمة العالية والعمل المضاعف.

إستراتيجية المواجهة

المعروف أن الغزو الثقافي والاختراق الفكري والمعنوي لمجتمعاتنا، من أخطر ما نواجهه اليوم وما سنواجهه في المستقبل، كيف ترون إلى الاستراتيجية الثقافية الفُضلى لتحقيق مواجهة ناجعة في إيران والعالم الإسلامي؟

للغزو الثقافي من جانب الإستكبار امتداد تاريخي واسع، ولدينا من التجارب نماذج كثيرة. فلقد نجح الإستكبار أحياناً في الوصول إلى أهدافه عبر هذه «الحرب الناعمة»، ولعلّ في مثال الدولة الأسبانية (الأندلس سابقاً) ما يشكل نموذجاً صارخاً عن نجاح هذا النوع من الغزو الثقافي لمجتمعات المسلمين. وفي التاريخ المعاصر نجد أن النظام الملكي في إيران، بالتعاون مع الغرب وخصوصاً «إسرائيل» وأميركا، قام بتمهيد السبيل لهذا الغزو، وركّز على ذلك؛ ولكن مع انتصار الثورة انقلب الأمر وحدث التحوّل، ولكن الهجوم الثقافي الغربي صار أكثر قسوة على الشعب الإيراني بحيث أرسل الاستكبار إلى إيران كمّيات هائلة من المنشورات الفاسدة والمخدرات والأقراص الإلكترونية المخربة للأخلاق، بالسعر المخفّض، وعمد إلى نشر مراكز الفساد في طهران خاصة وفي سائر المدن الأخرى لجرّ شبابنا إلى هذه المراكز، وأكثرَ من فتح طرق الفساد العديدة.. إلى درجة أصبح هذا الدمار للقوّة الإنسانيّة يُعدّ الأسوأ من كل أنواع الدمار الأخرى.

في هذا المجال، يقول الإمام الخميني قدس سرّه: «أرادت الأنظمة ـ تبعاً للأجانب ـ أن لا يصلح الإنسان في الدول الشرقية. إنهم يخافون من الإنسان، إنهم لا يريدون أن يظهر حتى إنسان واحد، يعمل لله ويحيا ويموت لله أيضاً. فلو أعطي شيئاً لسأل من أين؟ وما هو؟ وهل صحيح استخدامه؟

هل جاءت هذه السيارة من طريق حلال أم حرام؟ خيانة أم أمانة؟ فهذا هو الإنسان الذي يفكّر بهذه الأمور، ونحن نريد مثل هذا الإنسان أيضاً».

كيف ترون إلى الأبعاد الأخلاقية للغزو الثقافي الغربي لبلادنا، وما هي الأسس التي تنبني عليها الثقافة الإسلامية الأصيلة في هذا الميدان؟

للغزو الثقافي مناح وخطوط شتى، أخلاقية وفكرية وسياسية؛ في مقدمها الإنحياز إلى ثقافة الغرب وتقاليده، والإدمان على المخَدّرات وإشاعة الفحشاء، وجرائم السرقة والقتل وسواها. على أن كلّ قسم من هذه الأقسام يحتاج إلى معالجة خاصة؛ والجدير بالذكر أن الممارسات «الإسرائيلية» في فلسطين لا تنحصر بتوطين المهاجرين من الصهاينة في الأراضي الفلسطينية، بل هي تشمل تهويد القِيَم أيضاً وأساساً.

لعل من أخطر مظاهر الغزو الثقافي ـ كما يبيّن الامام الخميني رضوان الله عليه ـ هو الاستعمار الفكري، كأنْ يفقد الإنسان شخصيته وثقته بنفسه ليصبح مجرد مقلِّد يقلّد ما يأتيه من الخارج عن غير وعي، وهذه هي المصيبة الأساسية التي ألَّمت بعالمنا الإسلامي في هذا العصر، حيث فقد المجتمع ثقته بنفسه، وأضاع شخصيته ليصبح مجرد مقلّد للغرب بامتياز. ويا ليته قلّد الغرب في اكتشافاته واختراعاته التي تفيد البشرية، لكان استحقَّ المدح والثناء، لكن الذي حصل كان تقليداً في الفساد والإنحرافات والعيوب والثغرات التي يعيشها الغرب؛ تقليداً غير واع ولا ينطلق من رؤيا واضحة وعلمية.

على السياق نفسه يذكر الإمام الخامنئي: «أن من أخطر مظاهر الغزو الثقافي هو أن الغرب، وطوال السنين الماضية، حاول التأثير على العقل والفكر في إيران حيث ركّز في دعاياته وأضاليله على أن شعبنا قاصر وعاجز، ويجب عليه أن يكون دائماً تابعاً لأوروبا والغرب. إنهم في سعي دائم لئلا يفسحوا لنا في المجال كي نفكّر ونعتمد على أنفسنا. بل إنهم يعارضون نظرياتنا العلمية الجديدة في مجال العلوم الطبيعية أوالفيزياء أو. . . إذا كانت لا توافق النظريات المدوّنة. فمثلاً يقولون إن كلامكم هذا في الإقتصاد غير صائب لأنه يخالف النظرية الفلانية، أو كلامكم ورأيكم في علم النفس غير صحيح لأنه يخالف ما توصّلوا هم إليه من نظريات».

يقول الإمام الخامنئي:
أن من أخطر مظاهر الغزو الثقافي هو أن الغرب، وطوال السنين الماضية، حاول التأثير على العقل والفكر في إيران حيث ركّز في دعاياته وأضاليله على أن شعبنا قاصر وعاجز، ويجب عليه أن يكون دائماً تابعاً لأوروبا والغرب. إنهم في سعي دائم لئلا يفسحوا لنا في المجال كي نفكّر ونعتمد على أنفسنا. بل إنهم يعارضون نظرياتنا العلمية الجديدة في مجال العلوم الطبيعية أوالفيزياء أو. . . إذا كانت لا توافق النظريات المدوّنة. فمثلاً يقولون إن كلامكم هذا في الإقتصاد غير صائب لأنه يخالف النظرية الفلانية، أو كلامكم ورأيكم في علم النفس غير صحيح لأنه يخالف ما توصّلوا هم إليه من نظريات».

يفسحوا لنا في المجال كي نفكّر ونعتمد على أنفسنا. بل إنهم يعارضون نظرياتنا العلمية الجديدة في مجال العلوم الطبيعية أوالفيزياء أو. . . إذا كانت لا توافق النظريات المدوّنة. فمثلاً يقولون إن كلامكم هذا في الإقتصاد غير صائب لأنه يخالف النظرية الفلانية، أو كلامكم ورأيكم في علم النفس غير صحيح لأنه يخالف ما توصّلوا هم إليه من نظريات».

معالجة المشكلات الاجتماعيّة

ما هي رؤيتكم لمواجهة المشكلات الإجتماعية والأخلاقية الناجمة من المصادر المتعددة للغزو الثقافي، وما هي برأيكم السياسات العامة الحاكمة على البرامج العلاجية؟

تختلف معالجة المشكلات الإجتماعية من بلد إلى بلد؛ ذلك أن الظروف الحاكمة على البلاد مختلفة، وإن كانت متشابهة ومتماثلة في الشروط العامة. فالتخطيط للمعالجة يكون ناجحاً اذا كان متناسباً ومتوافقاً مع ظروف بلدٍ ما. ولذا فلا فائدة من برنامج معيّن جرى تطبيقه في بلد آخر لحل الآفات الاجتماعية. طبعاً يُمكن أن نستفيد من بعض تجارب البلاد المتقاربة الأحوال والظروف. من هنا، يجب التركيز في البرامج العلاجية على الأحداث والأسرة والمشاكل العائلية، وبالتالي لا بدّ من أن تكون المدارس والمعاهد والجامعات هي الجهات التي تتولى وضع المحاور الرئيسة في برامجنا العلاجية. فإن التربية والتعليم والثقافة لها دور كبير في بلورة وصياغة هوية الأحداث وإصلاح المجتمع.

في هذا الإطار، يقول الإمام الخميني قدس سرّه: «إنّ ما يصنع الشعوب هو الثقافة الصحيحة».

ويقول كذلك: «إذا صحّت الثقافة صلُح شبابنا». ويضيف: أنّ السبيل لإصلاح أي بلد إنما يبدأ من إصلاح ثقافته، فالإصلاح يجب أن يبدأ من الثقافة. فهي البداية الصحيحة التي تجعل كلّ الجهود الأخرى مثمرة، ثم إن ثقافة أي مجتمع

هي التي تحدد أساساً هوية ذلك المجتمع ووجوده، فإذا انحرفت الثقافة فإن المجتمع يكون أجوفَ فارغاً مهما حقّق من القوة في الجوانب الاقتصادية والسياسية والصناعية.

وحول الإهتمام بجيل الشباب، يقول الإمام الخميني قدس سرّه: «إن الإسلام يولي تهذيب الأطفال والشبان أهمية لا يوليها لأي شيء آخر. فمن شبّ على شيء شاب عليه. وإن لسنّ الشباب أهمية خاصة، ففي هذه السن يحدد الإنسان مسلكه الاجتماعي ومنهجيته، لذا فإنّ إصلاحه في هذا العمر أسهل وأصلب من تركه لإصلاحه بعد ذلك».

ويقول الإمام الخميني أيضاً: «أيام الشباب هي ربيع التوبة حيث هي أقل ثقلاً، وحيث كدورة القلب والظلمة الباطنية أقل، وحيث ظروف التوبة أسهل وأيسر».

التجربة الإسلامية في إيران

هل لنا أن نعرف كيف تصدَّيتم لهذه الآفات في الجمهورية الإسلامية الإيرانية، وما الخطوات العلاجية التي اتخذتموها ولا سيما في الجانب الثقافي؟

لقد استفدنا في زمن الحرب من برامج تثقيفية لرفع المعنويات والإحتراز عن المادّيات والفساد الأخلاقي؛ وكما أشرت قبل قليل، إن عمليات الغزو الثقافي قبل الثورة وبعدها كانت شديدة، ولكن الجو السائد في زمن الحرب ساعدنا كثيراً في المواجهة. ولقد سعينا في الجمهورية الإسلامية، لتنفيذ العديد من الخطوات والبرامج أبرزها ما يلي:

1- التخطيط لتشغيل الشباب في أوقات العطلة خصوصاً العطلة الصيفية، بإقامة الدورات التعليمية وكذلك بالرحلات الترفيهية والثقافية وبأي شكل آخر مشابه.

2- التخطيط للإستفادة من قوة الشباب في أيام العطلة الصيفية لبناء القرى و. . . (جهاد البناء).

3- مساندة ودعم وتوسيع الحوزات العلمية في جميع المدن للرجال والنساء.

4- إقامة صلاة الجمعة في جميع المدن والقرى.

5- تعميم الرؤية العرفانية الأخلاقية التي وردت في دروس ووصايا الإمام الخميني، على المدارس والحوزات العلمية والمراكز التعليمية والمساجد.

6- التركيز على بناء ثقافة الإستنهاض لدى الشعب من خلال تظهير وبث كلمات زعماء المقاومة، ورجال الدين، عبر وسائل الإعلام وفي المدارس والمساجد خصوصاً، بهدف مواجهة أي هجوم ثقافي من جانب الإستكبار يريد هدم هويتنا ومقاومتنا وقوتنا. إذ ما دام الزعماء والعائلات والشعب لم يصلوا إلى قناعة بأن هناك غزواً ثقافياً، ولم يقتنعوا بضرورة مواجهته، فإن الشعب والأطراف المعنية لا يمكن أن تتجاوب مع البرامج العلاجية.

7- السعي لرفع مصادر الآفات الاجتماعية وخصوصاً الفقر والأُميّة.

8- إيجاد وتوسيع ثكنة للتعبئة في المساجد، والتركيز على الأمور الثقافية والأخلاقية أكثر من التركيز على الأمور العسكرية (بعد الحرب المفروضة على الجمهورية الإسلامية).

9- السعي لتقديم وتعريف الأُسوة والنموذج المثالي للشباب والعائلات عبر الإعلام والندوات التثقيفية. وهذه الفرصة موجودة عند الحركات التحرّرية في البلاد الإسلامية لأن لهذه البلاد علماء كباراً كُثراً، فضلاً عن شهداء المقاومة؛ نحن في إيران خصّصنا في المحافظات المختلفة وفي المدن أيضاً يوماً تكريمياً لشهداء هذه المحافظة أو المدينة بالخصوص، وفي ضوء هذا الحفل التكريمي أوجدنا جوّاً إلتزامياً جديداً في المدينة والمحافظة، وفي هذا السياق تمّ إنتاج الأفلام عن أبطال المواجهات في الحرب المفروضة، وكذلك نشر كتب مذكرات ووصايا الشهداء والمجاهدين.

10- إنشاء قنوات تلفزيونية وإذاعية جديدة لرفع مستوى معرفة الناس بالنسبة إلى المسائل الدينية والمعرفية والتربوية.

ويأتي ذلك كله في سياق الخط العريض ـ الأصل والمنطلق ـ وهو السعي لإحياء الشعائر الدينية، خصوصاً مواليد الأئمة ووفياتهم عليهم السلام ، وإحياء أمر الصلاة بين الناس خصوصاً الشباب.

أخيراً، وفي ظلّ كلّ هذه المعطيات، كيف تُقيّمون مستوى قدرتنا على المواجهة؟

ليس من شك في أنّ الصورة التحليلية التي مرّ ذكرها حول الغزو الثقافي وطرق مواجهته تدخل في نطاق عقيدتنا، وهو ما نرمي إليه من الجهاد الأكبر، وهو جهاد النفس على مستوى الفرد والمجتمع والأمة. إنها مهمة كبيرة وشاقة وطويلة، لكنها ليست مستحيلة ما دمنا على صراط الحق، وشرعة الإسلام المحمديّ الأصيل.